أحوال اليهود في المشرق الإسلامي في القرن (6هـ /12م)

من خلال رحلة بنيامين التيطيلي (561-569 هـ /1165-1173م)

أ محمد الصديق محمودي
أستاذ مساعد قسم "أ". جامعة

المسيلة

ملخص المقال:

تميزت الحضارة الإسلامية طوال تاريخها باستعابها لكل الملل والنحل بما في ذلك التي أساءت للإسلام منذ أيامه الأولى كاليهود وهذا ما وقف عليه رجالات هذه الملة بأنفسهم، كالرحالة و الحاخام بنيامين التطيلي، فكيف وجد حال بني ملته في الفترة التي زار فيها المشرق الإسلامي؟.

زار الرحالة بنيامين التطيلي الشرق بما فيه المشرق الإسلامي في القرن (6هـ/12م) ما بين (561-569 هـ/1165-1173م)، بهدف الوقوف على أوضاع اليهود في الشرق لما كانوا يعانونه في الغرب الأوروبي خاصة بعد تراجع المسلمين في الأندلس لصالح الإسبان، واعتبِرت رحلته من المصادر الفريدة في تاريخ اليهود فقد وجدهم في أفضل حال بين المسلمين تجاوز الحضور السلبي إلى التفاعل الكبير، والعيش في كرامة، و قد أعطانا إحصائيات نادرة عن أعدادهم في المدن التي مر بها وبيّن لنا تمتعهم بحرية دينية واقتصادية وعلمية وحتى سياسية، وأبرز مثال حالهم في بغداد عاصمة المسلمين وقتئذ، والتي وصل عددهم بها حوالي 40000 يهودي كانوا يعاملون معاملة حسنة حتى من طرف الخليفة نفسه، الذي جعلهم في حاشيته ويعيشون في رفاهية وعز وأمان، خاصة زعماؤهم وعلى رأسهم رئيس الطائفة الذي يحضى باحترام المسلمين ويسمونه سيدنا ابن داود.

المنارة للاستشارات

من كل هذا يتبين لنا أن الحضارة الإسلامية كانت تجسيد لتعاليم الإسلام الحنيف، ولم تنظر لممارسات الأعداء و توجهاتهم بقدر نظرها لأوامر دينها السمحة، التي تهدف إلى نشر دعوة رسالة التوحيد الخالص والرحمة العامة.

ملخص المقال:(الفرنسية)

Tout au long de son histoire, la civilisation islamique s'était démarquée par da capacité de contenir toutes les races et les communautés qui constituaient son ossature, y compris celles avec lesquelles elle était souvent en conflit, la diaspora juive entre autres.

Les grandes figures de cette communauté témoignent eux-mêmes du climat de tolérance et de vivre-ensemble dont jouissait cette composante au sein de l'Etat islamique. Dans ce sillage, se trouve, une figure de prou est; le voyageur et homme de religion juif Benjamin de Tolède raconte son récit. dès lors, On peut se demander comment ce dernier raconte-il le réel de ses compatriotes juifs durant un voyage qui l'a conduit en orient.

مقدمة:

تميزت الحضارة الإسلامية التي هي تجسيد للدين الإسلامي القويم باستعابها لكل الملل والنحل على تنوع أعراقها وطوائفها، وذلك التزاما بتعاليم الدين الإسلامي الذي كرّم الإنسان قال تعالى:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾الإسراء70؛ كما أمر بحسن معاملته بغض النظر عن عقيدته، فتواجدت بين المسلمين في مختلف أمصارهم ملل ونحل عديدة عرفوا بتسميات عديدة هي أهل الذمة[1] وأهل الكتاب[2] والمستأمنين[3]، والتي كانت لها وجود ظاهر وإسهامات بارزة في مختلف مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية، ولم تستثن أي ملّة أو نحلة من هذه الممارسة الاستثنائية التي لا نجد لها نظيرا في الحضارات الأخرى، حيث سمح للجميع بالمشاركة في البناء الحضاري بما فيها اليهود، هذه النحلة التي كانت منبوذة في أغلب

المنارة للاستشارات

الأقطار الأوروبية وقتئذ[4]، وهذا ما شهد به اليهود أنفسهم و من هؤلاء أحد الرحالة و رجال الدين اليهود و هو بنيامين التطيلي الذي نقل للعالم حال اليهود بين المسلمين عيانا زمن قوة المسلمين و ضعف اليهود، فمن هو بنيامين التطيلي؟ وكيف وجد حال بني نحلته في الأمصار الإسلامية التي زارها في منتصف القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي؟.

قبل الإجابة عن الإشكالية المطروحة نعرف بداية باليهود وملتهم ونحلتهم وبأوضاع العالم الإسلامي ومكانة كتب الرحلات بين مصادر دراسة التاريخ ليتجلى لنا الآتي من الموضوع.

1- التعريف باليهود وملّتهم ونحلتهم:

أ- لغة: ترجع الكلمة إلى أصل أعجمي لأحد أبناء النبي يعقوب υ (ق18-17ق م) وهو يهوذا، فعرّبت الذّال فسمُّوا يَهُودَ كون العرب كل ما عربته غيرته، وهنا غيّرت الذال دالا، ويهود اسم معرّفة والألف واللام فيها زائدة لأن الاسم لا يعرف من ذلك قوله ﷺ: «...فَتحلف لكم يَهُودُ...»[5] فاليهود اسم لملة لا اشتقاق له في العربية تعود إلى أبي اليهود يهوذا[6].

وبيّن المفكر عبد الوهاب المسيري(ت 2008) المختص في هذه الملّة والنحلة[7] أن اليهود يعودون إلى كلمة عبرية مشتقة من " يهودا " وهو اسم أحد أبناء النبي يعقوب υ (ق18-17ق م) والذي سميت به إحدى قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة، ويضيف في تفسير أعمق لأصل الاسم: "والاسم مشتق من الأصل السامي القديم «ودي» التي تفيد الاعتراف والإقرار والجزاء مثل كلمة «دية» عند العرب، وقد اكتسبت هذه المادة معنى الإقرار والاعتراف بالجميل وقد استوحت ليئة زوجة يعقوب υ اسم ابنها الرابع من هذا المعنى: "هذه المرة أحمد الرب" لذلك دعت اسمه يهودا، فكلمة «يهوه» تعني الرب و«دي» تعني الشكر ومنهما «يهودي»"[8].

ب- اصطلاحا: اليهود هم أتباع الديانة اليهودية الباطلة المحرفة عن الدين الحق الذي جاء به موسى υ (ق 14-13 ق م)، و طائفة اليهود لا تعني بالضرورة بني إسرائيل فاليهود أعمّ من بني إسرائيل لأن كثيرا من الأجناس كالعرب والرّوم وغيرهم قد دخلوا في اليهودية وليسوا من بني إسرائيل[9] مع أن الشرع اليهودي المحرف ضيق الملّة

المنارة للاستشارات

تضييقا عنصريا فقد عرَّف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية أو تَهوَّد، لكن الشرع الإسلامي لم يقبل عبر تاريخه بهذا التعريف العرقي العنصري الذي حصر اليهود في بني إسرائيل فكان يعرف اليهودي تعريفا دينيا وحسب[10].

ج- ملّة ثم نحلة اليهود: فقد دان اليهود في بادئ أمرهم مع الشرائع السماوية بشريعة النبي موسى ʊ (ق 14-13 ق م) و كتابه التوراة، ثم حرفوها من بعده وأدخلوا عليها معتقداتهم الخاصة التي شوهت التوحيد و الرسل و الرسالات و اعتبروا أنفسهم شعب الله المختار ولا شريعة قبل شريعتهم ولا بعدها[11] لاتفاقهم على إنكار النسخ، وأكثرهم يشبّه الله بخلقه[12]، و يرجع اليهود في تشريعاتهم إلى ثلاثة مصادر أولها التوراة، وثانيها التلمود، وثالثها بروتوكولات حكماء صهيون[13]، ومختصر عقيدة اليهود أنها عقيدة باطلة غالت في الشرك بالله والتشبيه والافتراء على الأنبياء وقتلهم وتحريف التوراة ونفي النسخ ومنه نفي الديانات الأخرى ووصلوا إلى تشويه ديانتهم وطمسها فكانوا ولا يزالون أكثر نحلة منحرفة ومتعصبة بيّنة الضلالة والكفر الشنيع والشرك بالله البشيع[14]، والكذب وأكثرها تكبرا حيث تسعى إلى محو الديانات الأخرى وتسيّد باقي الأجناس والملل وعلى رأسها الإسلام والمسلمين قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ المائدة82؛ قال الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت774هـ/ 1374م) في تفسير الآية: "ما ذاك إلّا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للنّاس وتَنقّص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيرا من الأنبياء حتى همّوا بقتل رسول صلى الله عليه وسلم غير مرة، وسموه ...، و ألّبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن اللّه المتتابعة إلى يوم القيامة"[15].

2- أوضاع العالم الإسلامي في القرن (6هـ/12م):

وصل العالم الإسلامي في هذا القرن (6هـ/12م) إلى درجة كبيرة من الضعف والتفكك بانقسام العالم الإسلامي في المشرق والمغرب إلى عدة دول متناحرة، ولم يبق للخلفاء العباسيين أي سلطان أمام الجند و لم يزد نفوذهم عن بغداد[16] وما حولها، فقد كانت مصر والحجاز وأجزاء من الشام تحت سيطرة العبيديين، وبيت المقدس وبعض السواحل الشامية و المدن المهمة بيد الصليبيين منذ(492هـ/1099م)، و قد انعكست هذه الأوضاع السياسية سلبا على مختلف مناحي الحياة في البلاد الإسلامية.

المنارة للاستشارات

ومع هذا الواقع المنحرف لسرائر اليهود الذي عايشه المسلمون مثل غيرهم، وبالرغم من الضعف والتشرذم الذي كانوا عليه إلا أنهم تعاملوا معهم بواقع مغاير طول تسيدهم للمشرق الإسلامي ومنه ما بينه لنا الرحالة بنيامين بن يونة التطيلي[17] الإسباني (الإسباني لإن تطيلة وسرقسطة كانتا قد سقطتا بيد الإسبان تباعا و خرجتا من يد المسلمين بالأندلس سنتي 507هـ/1114م و 512هـ/1118م) في رحلته الشهيرة نحو الشرق في منتصف القرن (6هـ/12م).

3- بنيامين التطيلي:

لا يعرف الكثير عن الحياة العلمية و الشخصية لهذا الرحالة و الحاخام الإسباني اليهودي الذي قام برحلة استغرقت حوالي ثمان سنوات ما بين(561-569 هـ/1165-1173م)[18]، زار خلالها نحو ثلاثمائة موضع من بينها إيطاليا واليونان والقسطنطينية وفلسطين وسوريا و العراق و إيران والهند، وعاد مرورا بعدن في اليمن ومصر وصقلية، وقد دون ملاحظاته في كتابه رحلات الحاخام بنيامين، وهي تتضمن عديدا من الروايات والتفاصيل المهمة عن حياة اليهود في الشرق خاصة المشرق الإسلامي، وقد انصب اهتمامه على بعض المظاهر الحضارية للبلدان التي زارها و على الجماعات اليهودية فيها من حيث علاقاتهم بالآخرين وأسلوب حياتهم ووظائفهم الأساسية وتنظيماتهم الاجتماعية وحياتهم الدينية[19]، كما أورد إحصاءات عن عدد اليهود، حتى غدا كتابه من المصادر الفريدة لعدد أعضاء الجماعات اليهودية في العالم المعروف وقتئذ[20]، و أحوالها العامة، و قد كتب رحلته باللغة العبرية، و طبعت في مطبعة "سونسينو" في القسطنطينية سنة (949 هـ/ 1543م) ثم نقلت إلى اللاتينية و من ثم إلى أغلب اللغات الأوروبية في الثلث الأخير من القرن (10هـ/16م)، نقلها لأول مرة الأديب اليهودي العراقي عزرا حداد (ت1392هـ/ 1972م) من العبرية إلى العربية وطبعت في بغداد سنة 1945 بالمطبعة الشرقية.

4- أهمية كتب الرحلات في دراسة التاريخ:

كتب الرحلات لا يخفى على الباحث في التاريخ أهميتها الكبيرة في تدوين التاريخ[21] وتبيين الحقائق كما جرت إلى حد كبير، كون الرحالة ينقل مشاهداته وملاحظاته المختلفة حول المناطق التي مر بها، فهي بذلك قد ترقى إلى قمة مصادر الكتابة التاريخية خاصة إذا تبين للباحث أن الرحالة تجرد إلى حد ما من ذاتيته و

المنارة للاستشارات

عواطفه و ميوله الشخصية، وهذا الأمر وإن كان صعبا من الناحية النظرية والتطبيقية فهو ممكن الحدوث من الناحيتين المذكورتين عند من تحلّى بالأمانة و الموضوعية و آثر إيصال الحقيقة، كما يتعين على الباحث في ثنايا كتب الرحلات أن يتبين المواطن التي قد يميل فيها الرحالة عن الموضوعية كالقضايا المذهبية والعرقية والسياسية، وما تعلق بفضائل الأعلام، وما دون ذلك من القضايا التي لا يكون للعاطفة تأثير فيها هي من تزيد في أهمية الرحلة، ومع ذلك لا يجب أخذها كمسلمات وإنما يجب النظر فيها بمقارنتها مع واقع الفترة التي تناولتها ومقارنتها مع رحلات أخرى في نفس الفترة إن وجدت، وبذلك يمتلك الباحث مادة علمية جيدة تجعله يدرس التاريخ إلى حد ما من موقع الشاهد والمشاهد.

5- الدوافع الحقيقية لرحلة بنيامين التطيلي:

هذه الرحلة لم يتفق الباحثون حول دوافعها الحقيقية، و بقيت غامضة غموض شخصية كاتبها كون صاحب الرحلة لم يثبُت اهتمامه بالرحلة و الجغرافيا، حتى كونه رجل دين يهودي لا توجد حوله معلومات وافية[22]، وما يثبته ما وصف به الرحالة نفسه بأنه " حاخام " يهودي، إضافة إلى أن الكاتب لم يبين دوافع رحلته الشهيرة وليس فيها ما قد يدل مباشرة على الهدف الرئيسي للرحلة و أقوى احتمال هو أن دافعه الرئيسي تقصي أوضاع اليهود وقتئذ كونه ركز في تدويناته على أحوال اليهود العامة في الأمصار التي حل بها.

فقد حصر الباحثون المختصون في الشأن اليهودي أسباب تنقلات ورحلات اليهود الأوربيين في العصور الوسطى في ثلاثة أسباب رئيسية، أولها سياسي يتمثل في تحكم الإقطاعيين في عمالهم الذين كانوا ملكا لهم فأمام هذا الواقع كان اليهودي مضطرا للتيهان للحفاظ على حريته باحثا عن المكان الآمن للاستقرار حتى أطلق على هذه الفئة من اليهود "اليهودي التائه"[23]، والسبب الثاني الحج إلى بيت المقدس لما يمثله لليهود من قدسية، والسبب الثالث كان اقتصاديا تمثل في الترحال بهدف التجارة التي كانت النشاط الرئيسي لهم بفعل حرمانهم من التملك وممارسة الزراعة في أوروبا وقتئذ[24]، هذا إضافة إلى سبب آخر اشترك فيه جميع الأطياف في ذلك الوقت و هو الرحلة لطلب العلم حيث كانت الرحلة عاملا رئيسيا في تحصيل المعرفة.

المنارة للاستشارات

وكل هذه الأسباب لا تنطبق على هذا الرحالة، فلو كان تائها باحثا عن الحرية الدينية والاقتصادية كيف أمكنه الاهتمام بتدوين مشاهداته المتنوعة؟! وأكثر من ذلك لماذا بدأ رحلته بأوروبا قبل غيرها مع أن الأحوال نفسها في كامل ممالكها وقتئذ؟!، ثم لماذا عاد إليها بعد رحلة تبدو ناجحة وجد فيها ملاذا و موطنا حيث حل وارتحل[25] وبالضبط عاد إلى النقطة التي انطلق منها إن كان هاربا من أمر ما؟!، كما أنه لو كان هدفه الحج إلى بيت المقدس لماذا تحمل عناء المرور بكل تلك الأمصار؟! خاصة إذا علمنا أنه توجه شرقا حتى حدود الهند والصين و جنوبا إلى عدن باليمن[26] ! هذا يعني أنه لو كان هدفه الحج فإنه لم يكن الدافع الوحيد، و لو كان هدفه التجارة لماذا لم يذكر ذلك؟ و لما لم يركز على التعاملات الاقتصادية في المدن التي حل بها؟ كما أنه لم يسلك الطرق المعتادة للتجار عموما و اليهود خاصة و زادت مدة رحلته عن المألوف عن التجار[27]، و مقابل ذلك نجده يركز على إحصاء اليهود وأمورهم الدينية و ركز على رجال الدين دون غيرهم من أعلام اليهود[28] و هذا عكس ما ذهب إليه المترجم، كما أننا لا نجد في ثنايا رحلته ما يشير إطلاقا إلى أنه كان طالبا للعلم الديني من اليهود أو العلوم الأخرى من غيرهم.

و مقابل هذا نجد أنه ركز على أحوال اليهود في معظم الأماكن التي حل بها معطيا ملاحظات دقيقة عن طوائف اليهود ومعتقداتهم، كما يركز على علمائهم ويذكر أسماءهم مما يدل على أنه إما كان يسأل عنهم حيث حل أو يسعى للاختلاط بهم في الوقت الذي نجده لا يتكلم عن كبار التجار و الحرفيين اليهود[29]، فعند تطرقه إلى معتقدات اليهود وطوائفهم نجده يستعمل مصطلحات تبين قطعا أنه على علم بعدة آراء ومواقف مخالفة حول القضية الدينية، فمثلا عند وصفه لليهود في مدينة نابلس يقول: " ...وفيها نحو الألف من الكوتيين وليس فيها يهود أما الكوتيون فهم السامريون[30] يتبعون أسفار موسى لا يؤمنون بغيرها...ويزعمون كذلك أنهم من سبط أفرايم (إبراهيم υ) وأن عندهم قبر يوسف الصديق ابن يعقوب ويبرهنون على زعمهم هذا بما جاء في التوراة ..."[31]، فقوله: "يزعمون" وتكريره نستشف منه تخطيئه لهم و علمه برأي مخالف زيادة على علمه بطوائف اليهود، كما تطرق إلى تاريخ و معتقدات النصارى و المسلمين التي يجهلها ولا تخطر ملاحظتها على النصراني والمسلم العامي فما بالك باليهودي العامي الذي ليس له علاقة مباشرة بالأمور الدينية مما يوحي إلى حد كبير أنه رجل دين يهودي، وحتى إن لم يكن من كبرائهم فرجال الدين

المنارة للاستشارات

النصارى و اليهود درجات، كما نستنتج من عودته إلى نقطة انطلاقه أنه كان في مهمة محددة أغلب الظن أنها تقصي أوضاع اليهود في الشرق عموما والمشرق الإسلامي بشكل خاص.

6- مسار رحلة بنيامين التطيلي:

بدأ التطيلي رحلته من مدينة تطيلة باسبانيا متجها شرقا مرورا بأوروبا حتى دخل إلى أراضي الإمبراطورية البيزنطية و زار عاصمتها القسطنطينية، و كان حيثما حلّ يركز على الأوضاع العامة لليهود وعلى كبرائهم[32]، مع إشارات دقيقة للمظاهر الدينية خاصة والاجتماعية والاقتصادية البارزة في المدن الكبرى بشكل عام[33]، ثم اتجه جنوبا ليدخل أراضي المسلمين و أول مدينة دخلها أنطاكية (ضمن دولة تركيا حاليا) و التي كانت بيد الصليبيين منذ نهاية القرن (5هـ/11م) بعد الحملة الصليبية[34] الأولى (488هـ/1096م)، ثم انتقل بعدها بين أبرز الأمصار المهمة كصيدا بالشام ومدن فلسطين وعلى رأسها بيت المقدس التي كانت بيد الصليبيين منذ الحملة الأولى المذكورة آنفا، ثم عرّج على دمشق وحلب والرقة ووصل الموصل بالعراق ثم دخل بغداد عاصمة الدولة العباسية والخليفة يومها هو الخليفة العباسي الثالث و الثلاثين المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله (555-566هـ /1160-1170م)، وبعدما أتم مكوثه بها واصل حتى وصل الكوفة ومنها إلى البصرة ثم خوزستان ونهاوند في فارس، ليصل إلى همذان وطبرستان حتى وصل سمرقند أبرز مدن ما وراء النهر ثم نيسابور وقد تداخلت في حكمها الدولة الغزنوية (351-581هـ/963-1186م)، ثم السلاجقة(429-590هـ/1037-1194م) ثم الدولة الخوارزمية(469-616هـ /1077-1220م)، ومر بعدها بأجزاء من الصين و الهند ليعود بعدها إلى بلاد الإسلام ويدخل جنوب شبه الجزيرة العربية مرورا بعدن ثم مدن مصر الشهيرة كالإسكندرية ومن مصر عاد إلى أوروبا مرورا بصقلية ثم الأندلس فاسبانيا.

7- أوضاع اليهود العامة من خلال الرحلة:

وجد الرحالة بنيامين اليهود في أفضل حال بفعل الاحترام والمعاملة الممتازة من طرف المسلمين، وقد شهد بذلك حتى مترجم الرحلة إلى العربية الأديب اليهودي عزرا حداد حيث يقول في مقدمته للترجمة واصفا حال اليهود بين المسلمين مقارنة

المنارة للاستشارات

مع حالهم بين النصارى: "... أما يهود الشرق فكانوا أسعد حظا وأكثر استقرارا واطمئنانا على أرواحهم و مواطنهم و أموالهم من إخوانهم في الغرب، فقد ترك لهم خلفاء المسلمين وسلاطينهم حرية الإيمان و المعتقد و أمنوهم على أرواحهم و ما ملكت أيمانهم بدافع الشرع القويم و العرف و التسامح فلم يكن اليهودي و هو من أهل الذمة ملزما بأكثر من جزية بسيطة يدفعها إلى بيت مال المسلمين لقاء حصوله منهم على حقوقه المشروعة..." و يضيف في نفس السياق: " و إذا كان يهود الشرق عانوا أحيانا من بعض الشدة في عهود الانحطاط من بعض الأمراء المتغلبين فإن تلك الأوضاع الشاذة ما كانت تدوم إلا مدة قصيرة، إذ لم تكن هناك خطة اضطهاد مرسومة و سياسة عداء مقررة"[35]، وهذه شهادة لها وزنها في إنصاف الإسلام و المسلمين كونها جاءت من أتباع نحلة يعتبرون ألد أعداء الإسلام و أهله كما أسلفنا قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾المائدة82؛[36] فمِن أول مدينة مسلمة دخلها بالمشرق و هي أنطاكية إلى آخر مدينة بمصر لم يذكر هذا الرحالة أي إساءة لليهود صغيرة كانت أم كبيرة فقد كانت أحوالهم العامة ممتازة في مختلف النواحي.

أ- **الأوضاع السياسية:** فمن الناحية السياسية لم يتعرضوا لسوء المعاملة من طرف الخاصة ولا العامة، و نالوا احترام المسلمين خاصة علماءهم و قادتهم ولم يمنعوا إلا من الأمور التي منعها الشرع عنهم فقط[37] و ما دون ذلك فقد مارسوا أمورهم بكل حرية، مع التزامهم بدفع الجزية وتعاونوا مع المسلمين فيما يجمعهم، من ذلك مشاركتهم للمسلمين جنبا إلى جنب في مدينة تدمر بالشام في قتال الصليبيين دفاعا عن أرضهم ومقدساتهم[38] ؛ و كانت مقدساتهم مصونة من طرف المسلمين لا يمسونها بسوء تحت رعاية ولاة الأمور فلا تمس حتى أيام الحروب[39] وهذا لما كان يفرضه المسلمون من احترام لهذه المقدسات؛ و أبرز مصر نالوا فيه الاهتمام و التقدير عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد التي كان لهم بها تواجد كبير جدا فقد كانوا نحو أربعين ألف تحت رعاية الخليفة[40] الذي كان محترما لدينهم و زعمائهم و مقربا لهم و أكثر من ذلك كان ضمن حاشيته عدد من اليهود[41]، وهذا إن دل على شيء يدل على اهتمام الأمة بجانبها الرسمي والديني بأهل الكتاب ومن هم في ذمتهم، فالخليفة أول ممثل للسلطتين الدينية والدنيوية وبغداد كانت من أكبر الحواضر السياسية والعلمية التي ضمّت عدد هائل من العلماء، وإن عقّب قائل بأن هذه

المنارة للاستشارات

المعاملة كانت في أمصار بعينها و أن الخلافة وقتئذ لم يكن لها سيطرة إلا على بغداد و ما جاورها[42]، فالرد العلمي هو أن العبرة بالمنهج و ليس بالأشخاص و الأنظمة فما يهمنا هو معرفة نظرة الخليفة وأكبر منه علماء الدين الأعلم بحكم هؤلاء و قواعد معاملتهم في الإسلام.

ب- الأوضاع الدينية و العلمية: و في الجانب الديني و العلمي حضي اليهود كباقي طوائف أهل الذمة باحترام كبير لمقدساتهم ورجال دينهم وممارسة شعائرهم، فقد كانت مقدساتهم مصونة و محمية من طرف المسلمين و على رأسهم ولاة الأمور و لا تنتهك حتى في الحروب كما أسلفنا، كما سمح لهم ببناء المدارس الدينية خاصة ببغداد التي وجد بها بنيامين التطيلي عشرة مدارس مهمة يتولونها بأنفسهم[43]، كما كان بها عدد من كبار العلماء ورؤساء اليهود وعلماء الدين يتقدمهم كبير اليهود المسمى برأس الجالوت[44] ويسميه المسلمون ابن داود، وينادونه سيدنا ابن داود، والذي يتمتع بمكانة عظيمة عند الخليفة و العامة و له أملاك كثيرة جدا مصونة من طرف الخلافة، و له كنيسة عظيمة البنيان جميلة المظهر، وأكثر من ذلك يحضى بلقاء الخليفة في مناسبات معينة يخرج فيها في موكب كبير وعليه ملابس فخمة تحمل شعار الخليفة ويسير أمامه اليهود والمسلمون وهم ينادون: "اعملوا الطريق لسيدنا ابن داود"[45]، و بلغت مكانته بين المسلمين وغيرهم من الرعية درجة قيام كل من يمر به موكبه و تحيته، و من لم يلتزم بهذه التقاليد يعاقب على ذلك وعندما يدخل على الخليفة يبادر إلى تقبيل يده والخليفة جالس، ثم ينهض الخليفة ويجلس بحضرته رأس الجالوت[46]، كما وجد رحالتنا اليهود يتمتعون بزيارة مقدساتهم وصيانتها كمرقد النبي حازيقال[47] υ بالعراق المقدس عندهم، حيث يحجون إليه من كل حدب وصوب ويقيمون به المهرجانات البهيجة يحضرها حتى رأس الجالوت[48].

ج- الأوضاع الاقتصادية: وإذا جئنا إلى حياة اليهود الاقتصادية تحت حكم المسلمين، فقد وجدها في أفضل حال، حيث تمتع اليهود بحرية كبيرة في ممارسة الأنشطة الاقتصادية المختلفة خاصة الصناعة والتجارة مع تركيزهم على الأمور الثمينة والمهمة كصناعة الزجاج النفيس وامتلاك سفن التجارة و تسيير الكثير من الحرف، حتى غدا أغلبهم من ذوي اليسار والجاه في أكثر الأمصار الإسلامية كأنطاكية وصيدا وصور

المنارة للاستشارات

ودمشق وبغداد وسمرقند[49]، و لم يكن مفروضا عليهم إلا تأدية الجزية التي لا تتعدى مقدار بسيط من المال[50].

د- الأوضاع الاجتماعية: وبالنسبة لحياتهم الاجتماعية فقد كانت في أفضل حال فهي انعكاس للجوانب الأخرى فالاستقرار السياسي والديني والرخاء الاقتصادي ينعكس إيجابا على الأوضاع الاجتماعية، كما أن في تعدادهم الكبير بمدن المشرق أكبر دليل على أوضاعهم الجيدة فلو كانوا قد تعرضوا لاضطهاد أو تضييق لما استقروا بتلك الأعداد الكبيرة جدا فبغداد مثلا و جد بها حوالي40000 وسمرقند وجد بها نحو 50000 يهودي و بدمشق وجد حوالي 3000[51]، و أكبر من ذلك وقف على نقص عدد اليهود في مناطق التواجد الصليبي بالمشرق فبيت المقدس لم يجد بها إلا نحو 200 يهودي[52] فقط بالرغم من مكانتها الدينية عندهم كما يزعمون، و هذا راجع إلى اضطهاد الصليبيين لهم منذ دخولهم المدينة فقد نكلوا بيهودها و لم ينج منهم إلا القليل[53].

خاتمة:

يتجلى لنا من كل هذا أن الحضارة الإسلامية كانت تجسيدا لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، ومبادئه السمحة، وسعت إلى تطبيق تشريعاته في مختلف مناحي الحياة فَفَهِم المسلمون وقتئذ الدين على أنه منهج حياة يشمل كل شيء و ليس تأدية بعض العبادات و فقط، و لم تنظر هذه الحضارة لممارسات الأعداء وتوجهاتهم بقدر نظرها لأوامر دينها السمحة، التي تهدف إلى نشر دعوة رسالة التوحيد الخالص والرحمة العامة.

الهوامش:

[1]- أهل الذمة: هم غير المسلمين في البلاد المسلمة الذين يتمتعون بالأمن و الحماية مقابل دفع الجزية و يدخل في ذمة المسلمين كل الكفار و المشركين دون استثناء و أشهر الطوائف التي تواجدت اليهود والنصارى و المجوس و الصابئة، انظر ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة, حققه و علق عليه: يوسف بن أحمد البكري و شاكر العاروري, ط1, رمادي للنشر, المملكة العربية السعودية, 1997, ج1, ص 87؛ سيد سابق: فقه السنة، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1977، ج2، ص 666.

المنارة للاستشارات

[2]- أهل الكتاب: هم اليهود و النصارى فقط؛ انظر ابن قدامة المقدسي: المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط1، دار الفكر، بيروت،1985، ج7، ص 502؛ ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ج1، ص 242.

[3]- المستأمنون: و هم من دخل دار الإسلام على أمان مؤقت من قِبل الإمام أو أحد المسلمين، و الفرق بينهم و بين أهل الذّمّة أن الأمان لأهل الذّمّة مؤبّد وللمستأمنين مؤقت, انظر ابن قيم الجوزية: المصدر السابق, ج1, ص216؛ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية: الموسوعة الفقهية , ط2, ذات السلاسل, الكويت, 1976, ج7, ص 121.

[4]- فقد اضطهد اليهود منذ القدم بعد السبي البابلي سنة (586 ق م) و على يد كل الكيانات التي كانوا تحتها بعد ذلك كالروم في مصر و الشام ثم الدول الأوروبية في العصور الوسطى و ليس أدل على ذلك ما لاقوه على يد الأسبان قبل و بعد سقوط الأندلس سنة (897هـ/1492م)؛ انظر صابر طعيمة: التاريخ اليهودي العام، ط3، دار الجيل، بيروت،1991، ج2، ص 52،54.

[5]- مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم, كتاب القسامة و المحاربين و القصاص و الديات, باب: القسامة, ط1, المطبعة المصرية بالأزهر, القاهرة, 1929, ج11, ص 153.

[6]- الصحاري العوتبي: الإبانة في اللغة العربية، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط1، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، 1999، ج1، ص 105؛ عبد القادر بن عمر البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997، ج 6، ص 396؛ الأصبهاني المديني: المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، ط1، دار المدني، جدة، 1988، ج3، ص 516؛ مرتضى الزَّبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية،الإسكندرية، (دت)، ج9، ص 353.

[7]- لقد تعمدنا هنا ذكر المصطلحين معا ملّة و نحلة للدلالة على ديانة اليهود لأنها في بدايتها قبل تحريفها كانت ملّة من عند الله تعالى جاء بها نبيه موسى υ وبعدما حرفت و أصبحت وضعية في أكثر تشريعاتها فهي نحلة.

[8]- عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية، ط1، دار الشروق، مصر، 1999، ج2، ص 209.

[9]- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت)، ج13، ص 257؛ عبد الوهاب المسيري: المرجع السابق، ج2، ص 209.

[10]- عبد الوهاب المسيري: المرجع نفسه، ج2، ص 209.

المنارة للاستشارات

[11]- الشهرستاني: الملل والنحل, تحقيق: محمد بن فريد, دار التوفيقية, مصر, 2003، ج1، ص 215، ج1، ص 218.

[12]- الرازي فخر الدين: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق: علي النشار، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت)، ص 82.

[13]- بروتوكولات حكماء صهيون: بروتوكول كلمة إنجليزية تعني اتفاقية، فهي اتفاقية حكماء صهيون وهي وثيقة يقال إنها كتبت عام 1897 في بازل بسويسرا، في العام نفسه الذي عقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول وأن الهدف من المؤتمر السري وضع خطة لإقامة إمبراطورية عالمية تخضع لليهود وتديرها حكومة عالمية مقرها القدس، وعددها 24 بروتوكولاً، نشرت لأول مرة عام 1905 ملحقا لكتاب من تأليف سيرجي نيلوس وهو مواطن روسي ادعى أنه تسلَمها عام 1901 من صديق له حصل عليها من امرأة ادعت أنها سرقتها من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا وقد لاقت البروتوكولات رواجا كبيرا بعد نشوب الثورة البلشفية 1917 التي أسماها البعض الثورة اليهودية وانتقلت البروتوكولات إلى غرب أوربا عام 1919 حيث حملها بعض المهاجرين الروس وبلغت البروتوكولات قمة رواجها في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين؛ انظر عبد الوهاب المسيري: المرجع السابق، ج2، ص 371.

[14]- عبد الحق الإسلامي المغربي: الحسام الممدود في الرد على اليهود، تحقيق: عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،2001، ص 26.

[15]- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ج3، ص 150.

[16]- أمينة بيطار: تاريخ العصر العباسي، ط4، جامعة دمشق، دمشق، 1997، ص 277.

[17]- التطيلي: نسبة إلى مدينة تطيلة باسبانيا شرق قرطبة و قرب سرقسطة بنيت في عهد الأمويين بالأندلس تتميز بتنوع مظاهرها الطبيعية ومن المدن التابعة لها مدينة طرسونة؛ انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، ج2، ص 33؛ أبو عبد الله الحِميرى: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980، ص133.

[18]- حدد مترجم الرحلة عزرا حداد تاريخ الرحلة بدقة علمية معتمدا على مجموعة من المعطيات التاريخية؛ انظر بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزرا حداد، دراسة و تقديم: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002، ص 147-148.

[19]- الجمعية المصرية لنشر المعرفة: الموسوعة العربية الميسرة، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2010، ج2، ص 793.

المنارة للاستشارات

[20]- عبد الوهاب المسيري: المرجع السابق، ج2، ص52.

[21]- بشار قويدر: مناهج التاريخ الإسلامي و مدارسه, ط1, دار الوعي, الجزائر, 1993, ص 70.

[22]- فقد شكك مترجم الرحلة إلى العربية الأديب اليهودي العراقي عزرا حداد في كون بنيامين التطيلي من حاخامات اليهود بحجة عدم ورود اسمه في سجلات علمائهم و تراجمهم إلا مقرونا بهذه الرحلة فقط كما ذهب إلى أن سبب الرحلة هو التجارة بانيا حجته على اهتمام هذا الرحالة بأمور التجارة أكثر من غيرها و لم يفصل حسبه في ذكر أعلام اليهود الذين ذكرهم؛ انظر بنيامين التطيلي: المصدر السابق, مقدمة المترجم, ص 138.

[23]- بنيامين التطيلي: المصدر نفسه, مقدمة المترجم, ص 126.

[24]- بنيامين التطيلي: المصدر السابق, مقدمة المترجم, ص 127.

[25]- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت، 1988، ج14، ص62.

[26]- بنيامين التطيلي: المصدر السابق, ص345.

[27]- فقد كان التجار اليهود المهرة يرتحلون من المشرق إلى المغرب والعكس برّا وبحرا يجلبون من المغرب مختلف السلع الثمينة و يمرون ببحر القلزم (الأحمر) و يصلون حتى السند والهند والصين فيحملون من الصين سلعا أخرى ثم يرجعوا إلى بحر القلزم و أحيانا يمرون بتجاراتهم إلى القسطنطينيّة ثم أوروبا فيبيعونها هناك، وإن شاؤوا حملوا تجاراتهم من أوروبا حتى أنطاكية ويسيرون إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الأبلّة (جنوب العراق) ومن الابلّة إلى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض؛ انظر ابن خرداذبة: المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، 1889، ص153-154؛ ابن الفقيه: البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1996، ص 540.

[28]- بنيامين التطيلي: المصدر السابق, ص 302.

[29]- بنيامين التطيلي: المصدر نفسه, ص 228.

[30]- السامريون: أو السامرة فرقة يهودية تركزت قرب بيت المقدس وبعض قرى مصر وهي أبرز فرق اليهود اختلافا عن باقي اليهود منه أنها أثبتت نبوة موسى و هارون و يوشع بن نون عليهم السلام فقط وتقول أن جبل غزيريم بين نابلس و بيت المقدس هو المكان المقدس و ليس القدس إلى غير ذلك من الشرائع الأخرى التي خالفوا فيها سائر اليهود؛ انظر الشهرستاني: المصدر السابق, ج1, ص 225؛ عبد المجيد همو: الفرق و المذاهب اليهودية منذ البدايات, ط1, الأوائل, دمشق, 2003, ص 34.

المنارة للاستشارات

[31]- بنيامين التطيلي: المصدر السابق, ص 244.

[32]- بنيامين التطيلي: المصدر نفسه, ص 212 - 224.

[33]- بنيامين التطيلي: المصدر نفسه, ص 219.

[34]- الحملات الصليبية: هي حملات عسكرية قادتها أوروبا النصرانية على العالم الإسلامي خاصة المشرق ما بين (488- 690هـ/1096-1291م) بلغت ثماني حملات منها واحدة على تونس, و الأخرى على المشرق دعا إليها بابا روما أوربان الثاني وتباينت دوافعها وأهدافها بين الأطراف المشاركة فيها ما بين سياسية واقتصادية ودينية, و تمكنت من تحقيق انجازات عسكرية منها إقامة أربع إمارات صليبية بالمشرق أشهرها بيت المقدس, واسترجعت راضي المسلمين منهم تباعا إلى غاية إخراجهم نهائيا على يد المماليك؛ انظر قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية, المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب, الكويت, 1990, ص 47 , 89.

[35]- بنيامين التطيلي: المصدر السابق, مقدمة المترجم, ص 132.

[36]- يفسر العلامة عبد الرحمن السعدي الآية أيضا بقوله: " فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغيا وحسدا وعنادا وكفرا"؛ انظر السعدي عبد الرحمن: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان, ط1, مؤسسة الرسالة, 2000, ص 241.

[37]- فقد بين الشرع الحكيم ما يمنع على أهل الذمة كدخول أرض الحرمين و الإمامة الكبرى "الخلافة" وتولي شؤون المسلمين والوظائف الدينية والقضاء وقيادة الجيش والزواج بالمسلمة والجهر بما يخالف الإسلام و بناء البيع و الكنائس ...الخ و أبرز نص فصل ذلك ما وضعه عمر بن الخطاب τ و المعروف بالشروط العمرية؛ انظر ابن قيم الجوزية: المصدر السابق, ج2, ص 1166؛ الماوردي: الأحكام السلطانية, تحقيق: أحمد مبارك البغدادي, ط1, مكتبة ابن قتيبة, الكويت, 1989, ص 4 , 186.

[38]- بنيامين التطيلي: المصدر السابق, ص 277.

[39]- بنيامين التطيلي: المصدر نفسه, ص312.

[40]- فقد كان الخليفة المستنجد بالله (555-566هـ/1160-1170م) من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا رفيقا أبطل المكوس بالعراق شديدا على أهل الفساد و الظلم و لو كانوا من حاشيته؛ انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ, تحقيق: عمر عبد السلام تدمري, ط1, دار الكتاب العربي، بيروت, 1997, ج9, ص353.

المنارة للاستشارات

[41]- بنيامين التطيلي: المصدر السابق, ص302.

[42]- تراجعت هيبة الخلفاء العباسيين منذ القرن (4هـ/10م) و لم يعد لهم سلطان في غالب الأحيان إلا على بغداد و ما جاورها؛ انظر عصام الدين عبد الرؤوف: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي, ط2, دار الفكر العربي, القاهرة, 1999, ص 32.

[43]- بنيامين التطيلي: المصدر السابق, ص 299.

[44]- رأس الجالوت: مصطلح عربي يطلق على رئيس الطائفة اليهودية أصله أرامي يعني رئيس الجالية و يسميه اليهود "ريش جالوتا" ظهر المنصب ببابل في(ق1م) و رأس الجالوت المذكور هو دانيال بن سليمان بن حسداي (ت596هـ/1174م)؛ انظر أحمد سوسة: ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق, المؤسسة العربية, بيروت, 2001, ص 157, 172, 178.

[45]- بنيامين التطيلي: المصدر السابق, ص302.

[46]- بنيامين التطيلي: المصدر نفسه, ص301.

[47]- حزيقال: نبي من أنبياء بني إسرائيل (ق 6 ق م) كان ضمن السبي البابلي إلى العراق ذكرته أغلب المصادر العربية باسم "حزقيل" و أجمعت على أنه من أنبياء بني إسرائيل لكن اختلفت حول اسمه في القرآن فقال البعض بأنه ذو الكفل و ذهب البعض إلى أن ذا الكفل هو إلياس عليهم و على نبينا السلام؛ انظر أحمد سوسة: المرجع السابق, ص 131, 132.

[48]- بنيامين التطيلي: المصدر السابق, ص 309.

[49]- بنيامين التطيلي: المصدر نفسه, ص 238, 333.

[50]- بنيامين التطيلي: المصدر نفسه, ص 326.

[51]- بنيامين التطيلي: المصدر السابق, ص 273.

[52]- بنيامين التطيلي: المصدر نفسه, ص 248.

[53]- بنيامين التطيلي: المصدر نفسه, ص 248؛ محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق و المغرب, دار الغرب الإسلامي, بيروت, 1982, ص 54.

المنارة للاستشارات